بالضرورة ايضاً ولا خيرة لك الاَّ المهاجرة والاغتراب حيث تعرف قوى عقلك ونشاط شبابك في غير بلادك وتخدم غير نفسك واهلك وانت لا تدري

ان لم تقتصد ايها المستخدم والصانع في لباسك وطعامك وتنفقات جيبك ليتأتَّى لك ان تدَّخر في كلّ سنة شيئاً تعدّهُ رأس مال لمستقبلك بقيت طول عمرك مستخدماً وصانعاً واورثت بنيك الفاقة والمذلة او اضطررت الى الاغتراب والمهاجرة . وشبيهات ان تكون هناك اكثر من خادم او صانع تخدم غير ذويك وتستصنع لغير بلادك واهلك

ان لم تقتصدوا يا اصحاب البيوت في نفقاتكم من صغيرها الى كبيرها بقيتم على ما انتم عليه تعللون النفس بالاماني والاحلام الفارغة او تشكون الدهر وانتم تزجون العيش تزجيةً . واذا افضى احدكم لاسمح الله الى المذلة والفقر فلا تلومنَّ الاَّ انفسنا على سوء تدبيرنا وعدم اقتصادنا

ان لم تقتصدوا يا اصحاب الاملاك والعقارات الكبيرة فلا تأمنوا مغبة الدين وان تنتقل املاككم وعقاراتكم الى ايدٍ غير ايديكم او غير ايدي بنيكم ولا تكون مع الايام الاَّ يداً اجنبيةً اقدر منكم على ادارة الاملاك واعرف بسبل الاقتصاد والارض لله يرثها النشيطون المقتصدون

ان لم تقتصدوا يا تجارنا وصيارفنا . ان لم تتوقَّوا اشراك البورصة وتهربوا منها هربكم من الافعى جررتم انفسكم الى الافلاس العاجل وجررتم البلاد بأسرها معكم الى الخراب والدمار . والخلاصة ان داءنا الاسراف ولا ينجينا من الافلاس والخراب المشارعين اليد الاَّ الاقتصاد وقد بذلت لكم نصحي وما النصح الاَّ لنفسي واهلي والسلام

جبر ضومط

الاحتضارات والقبريَّات

(تابع ما قبلهُ)

وقال ابن المعتزّ وهو يلفظ انفاسهُ (سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م)

يا نفس صبراً لعلَّ الخير عقباكِ ... خانتك من بعد طول الأمن دنياكِ

مرَّت بنا سحراً طيرٌ فقلتُ لها ... طوباكِ يا ليتني اياكِ طوباكِ

ان كان قصدكِ شرقاً بالسلام على ... شاطي الفُراتِ أبلغي ان كان مثواكِ

من موثق بالشايا لا فكاكَ لهُ ... يبكي الدماء على الف لهُ باكِ

أعلنهُ آخر الايام من عُمُري واوشك اليوم ان يبكي لهُ شاكِ

ولما وقعت نزغة بين المقتدر بالله العباسي ومؤنس المظفر امير الجيوش اشتعلت بينهما نارُ الحرب فتوغل المقتدر في المعركة فضربهُ واحد من البربر فسقط الى الارض فقال لضاربهِ "ويحك انا الخليفة" فقال لهُ انت المطلوب وذبحهُ بالسيف سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م

ولما أُعجم ابن الجرّاح الكاتب للذبح سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨ م قال : «يا قوم ذبحًا كالشاة اين المصادرات اين انتم من الاموال . انا افدي نفسي بكذا وكذا» فلم يلتفتوا الى كلامهِ بل ذبحوهُ وألقوا رأسهُ في البئر

ولما قدّم الحسين بن منصور الحلاّج للقتل بامر المقتدر انشد قائلاً

طلبتُ المستقرَّ بكل ارضٍ فلم ارَ لي بارضٍ مستقرًّا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعتُ لكنتُ حرًّا

ولما قُطع بعض اعضائهِ وخاف ان يصفرَّ وجههُ من نزف الدم ادنى يدهُ المقطوعة من وجههِ فلطخهُ بالدم ليخفي اصفرارهُ وانشد :

لم أُسلم النفس للاسقام تتلفها الاَّ لعلمي بان الوصل يحييها
نفس المحبّ على الآلام صابرةٌ لعلَّ سقمها يومًا يداويها

ولما قطعت اعضاؤهُ واحدًا واحدًا لم يتأوَّه ولم يتألم لكنهُ كان كلما قطع عضوٌ يقول :

وحرمة الودّ الذي لم يكن يطمع في إفسادهِ الدهرُ
ما قُدَّ لي عضوٌ ولا مفصلٌ الاَّ وفيهِ لكمُ ذكرُ

فلما بلغ بهِ الحال أنشأ يقول :

لبيك يا عالمًا سرّي ونجوايا لبيك لبيك يا قصدي ومعنايا
أدعوك بل انت تدعوني اليك فهل ناجيتُ ايّاك أم ناجيتَ إيّايا
حبي لمولاي امتاني وامتعني فكيف اشكو الى مولاي مولايا
ياويح روحيَ من روحي ويا اسفي عليَّ مني فإني اصلُ بلوايا

ولفظ انفاسهُ في نحو سنة ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م

وكان آخر كلام ابن دريد قبل موتهِ في سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م قولهُ :

فواحزني ان لا حياة لذيذةٌ ولا عمل يرضى بهِ اللهُ صالحُ

وكان آخر شعر قالهُ ابن عبد ربهِ صاحب العقد الفريد قبل ان يعثر باذيال الردى هو :

كلاني لما بي عاذليَّ كفاني طويتُ زماني برهةً وطواني

بليتُ وابليتُ الليالي وكرهها وصرفانِ للايام مُتَوِرانِ
ومالي لا أبلى لسبعين حجةً وعشرٍ اتت من بعدها سنتانِ
فلا تسألاني عن تباريح علتي ودونكما مني الذي تريانِ
واني بحول الله راجٍ لفضلهِ ولي من ضمان الله خيرُ ضمانِ
ولستُ ابالي من تباريح علتي اذا كان عقلي باقياً ولساني

ثم انتقل الى الأخرى في سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م

ولما اشرف ابو فراس الحمداني على الموت سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٩ م انشد مخاطباً ابنتهُ :

أبنيتي لا تجزعي كلُّ الانام الى ذهاب
نوحي عليَّ بحسرةٍ من خلف ستركِ والحجاب
قولي اذا كلتني فعييتُ عن رد الجواب
زين الشباب ابو فراسٍ لم يُمتَّع بالشباب

ولما احتضر عضد الدولة بن بويه جعل يقول : « ما اغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » ويرددها حتى مات سنة ٣٧٢ هـ ٩٨٢ م

ولما اشتدت علة الشيخ الرئيس ابن سينا وهو في همذان اهمل مداواة نفسهِ وقال : « ان المدبر الذي كان يدبرني في بدني قد عجز عن التدبير فلا تنفع المعالجة » ثم مات سنة ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م

ولما كان المغسّل يغسل جثة عبد الباقي بن محمد بن الحسين البغدادي المعروف بابن ناقيا الشاعر المترسل المتوفى سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م وجد يدهُ اليسرى مضمومة ففتحها واذا فيها كتابة هي :

نزلتُ بجارٍ لا يخيبُ ضيفهُ أُرجّي نجاتي من عذاب جهنّمِ
واني على خوفٍ من الله واثقٌ بإنعامهِ فالله اكرمُ منعمِ

ولما كان ابو الحسن الهمذاني بلفظ انقاسهُ سنة ٥٢١ هـ — ١١٢٧ م أنشد لنفسهِ :

قالوا غداً نأتي ديار الحمى ويَنزلُ الرَّكبُ بمثامهُ
وكلُّ من كانَ مطيعاً لهم أصبح مسروراً بلقياهمُ
فقلتُ لي ذنبٌ فما حيلتي بأيِّ وجهٍ أتلقاهمُ
قالوا أليس العفوُ شأنهمُ لاسيما عمَّن ترجّاهمُ

وقال ابن الحديثي المعروف بأبي حليم الخطيب المشهور بعد كلام عند موته (٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) ختمهُ بقوله :

اروني من يقوم لكم مقامي اذا ما الامرُ جلَّ عن الخطابِ
بين تستصرخون اذا حثوتم بأعلكم عليَّ من الترابِ

ولما احتضر صلاح الدين الايوبي المشهور أمر احد أمرائهِ ان يطوف بدمشق في كفنهِ منادياً :

" هذا ما يأخذهُ صلاح الدين فاتح المشرق من فتوحهِ " ثم قبض في سنة ٥٨٩ هـ — ١١٩٤ م

وقال ابن الوردي صاحب اللامية الحكمية لما أصيب بالطاعون الذي توفي بهِ سنة ٧٥٠ هـ — ١٣٥٠ م

ولستُ اخاف طاعوناً كغيري فما هو غير احدى الحسنيينِ
فان متُّ استرحتُ من الاعادي وان عشتُ اشتفتْ اذني وعيني

وقال ابو عبدالله بن جزي الغرناطي المغربي لما اشتدَّ مرضهُ وشعر بدنو اجلهِ سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م :

ان يأخذ السقم من جسمي ما آخذهُ واصبح القومُ من امري على خطرِ
فان قلبي بحمد الله مرتبطٌ بالصبر والشكر والتسليم للقدرِ
فالمرء في قبضة الاقدار مصرفهُ للبرء والسقم او للنفع والضررِ

وشعر ابو الفتح المنجي الفقيه احد مدرّسي المدرسة النظامية في بغداد بتوب اجلهِ فقال لاصحابهِ " اخرجوا " فخرجوا فطفق يلطم وجههُ ويقول: " يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جنب الله " ويقول : " يا ابا الفتح ضيَّعتَ العمر في طلب الدنيا وتحصيل الجاه والمال والتردُّد الى ابواب السلاطين وينشد :

عجبتُ لأهل العلم كيف تغافلوا يجرُّون ثوب الحرص عند المهالكِ
يدورون حول الظالمين كأنهم يطوفون حول البيت وقت المناسكِ

ويردّد الآية " يا حسرتا على ما فرطت " حتى مات

ولما اشتدَّ على موفق الدين البغدادي المرض الذي مات فيهِ وكان ذات الجنب عن نزلة اشار عليهِ بعضهم بالمداواة فانشد :

لا اذود الطير عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثمرهِ

وقيل لأعرابي في مرضهِ ما تشتهي — قال " الجنة " فقيل : افلا ندعو لك طبيباً قال: " طبيبي هو الذي امرضني "

وقيل لأعرابي وقد مرض انك تموت . قال " واذا متُّ فالى اين يذهب بي " — قالوا: الى الله قال : " فما كراهتي ان يذهب بي الى من لم ارَ الخير الاَّ منهُ "

واحتضر اعرابي . فقال لهُ بنوهُ عظنا يا أبت فقال : " عاشروا الناس معاشرةً ان غبتم حنّوا اليكم وان متم بكوا عليكم "

وقال بعضهم في موتهِ من قصيدة :

غضي كما مضت القبائل قبلنا لسنا باول من دعاهُ الداعي
تبقى النجوم دوائرٌ افلاكها والارض فيها كلَّ يوم ناعي
وزخارف الدنيا يجوز خداعها ابداً على الابصار والاسماع

وقال بعضهم دخلت دير هرقل فنظرنا الى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلت لهُ احسنت . فاومأ بيدهِ الى حجرٍ يرمينا بهِ . وقال المثلي بقال احسنت . ففررنا منهُ . — فقال أقسمت عليكم الاَّ ما رجعتم حتى انشدكم فان انا احسنت فقولوا احسنت وان انا اسأت فقولوا اسأت نرجعنا اليهِ فانشد يقول :

لما اناخوا قبيل الصبح عيسهمُ وحمّلوها وسارت بالدُّمى الابلُ
وقبّلت بخلال السجف ناظرها يرتو اليَّ ودمع العين ينهملُ
وودّعت بنانٍ زانهُ عنمٌ ناديت لا حملت رجلاك يا جملُ
يا حادي العيس عرّج كي اودعهم يا حادي العيس في ترحالك الأجلُ
اني على العهد لم انقض مودّتهم يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

فقلنا لهُ ماتوا فقال وانا اموت ثم شهق شهقةً ترك فيها الدنيا

واحتُضر بعض الحكماء فجعل اخوهُ يبكي بافراط فقال المحتضر : " دوّن هذا يا اخي فعن قليلٍ تُرى ضاحكاً في مجلس أُذكر فيهِ "

وقال بعض الملوك لبعض العلماء وقد حضرت العالم الوفاة : اوصِ بمالك لي . فقال العالم : " اني لأستحي من الله سبحانهُ وتعالى ان اوصي بعبيد الله الى غير الله "

وقال موسى الاسواري : دخلت على ازدمرد وهو ثقيل فاذا هو كالخفاء لم يبقَ الاَّ رأسهُ فقلت لهُ يا هذا ما حالك . قال : " وما حال من يريد سفراً بغير زاد وينطلق الى ملك عدل بغير حجة ويدخل قبراً موحشاً بغير مؤنس " وفاضت روحهُ

وقيل لعطاء في مرضه ما تشتهي . قال : « ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة »
وقال آخر وهو يلفظ انفاسه :

عن قليل اصير كوماً تراب ... وتقول الرفاق هذا فلان
صار تحت التراب عظماً رميماً ... وجفاه الاصحاب والخلان

ومن اعجب ما عثرت عليه ان عبد النافع بن عمر شاعر يوسف بن سيفا والي طرابلس نظم قبل موته بايام ابياتاً فيها تاريخ وفاته (١٠١٦ هـ ١٦٠٨ م) : وهو قوله

فؤادي مما لا أسميه مكلوم ... ودمعي اليه عند مولاي معلوم
فلا عجب ان ضاع حقي لديه بل ... عجبت لاني عند مولاي محروم
فقد سمني الضر الذي ليس فوقه ... فليس كمثلي في التواريخ مظلوم

١٠١٦ هـ

وقد سمع احمد باكثير المكي الحجازي وهو يحتضر رجلاً ينادي على فاكهة قائلاً « ودعوا من دنا رحيله » فقال بديهاً :

يا صاح داعي المنون واف ... وحل في حيثنا نزوله
وها انا قد رحلت عنكم ... فودعوا من دنا رحيله

ولم يلبث ان مات بعد قليل بمكة سنة ١٠٤٧ هـ — ١٦٣٧

وقال رزق الله حسون وهو يجود بنفسه في البلاد الانكليزية في اواخر القرن الماضي

قدر الله ان اموت غريباً ... في بلاد قد سقت رغماً اليها
وبنفسي مخدرات معان ... نزلت آية الحجاب عليها

وقال الياس صالح وهو من آخر نظمه يصف الحمى التي كانت تنتابه : توفي سنة ١٨٩٥ م

اذا جن الظلام وغاب صحبي ... وفارقني احبائي وناسي
اتت تسعى الي وليس ترضى ... مقاماً غير احشائي وراسي

وقال نجيب الحداد قبل ان قبض الى رحمة ربه في سنة ١٨٩٩ م

مات النجيب فأرخوا قبراً له ... قد مات مشتاقاً الى لبنان

وآخر احتضار وقفت عليه للشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية قد نشر في المقتطف . والله اعلم بما نقله الينا الرواة . ولقد ادخلنا في باب الاحتضارات آخر كلام قيل لانه اشبه به

عيسى اسكندر المعلوف